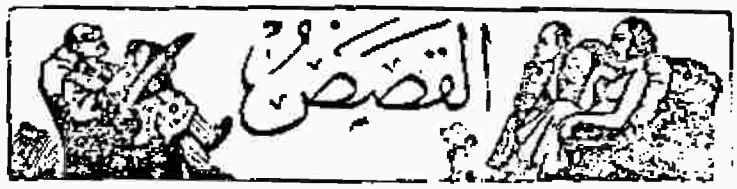

قصة من الحياة :

# من الأعمـــــاق (*)

« مهداة إلى الأستاذ أنور المعداوى »

للأستاذ كامل محمود حبيب

مضى الليل إلا أقلّه و « إلهام » تضطرب فى فراشها لا تستقر، تتلمس الكرى فلا تجده وتنشد الراحة فلا تنالها ، وقد اطمأنت إلى الظلام والسكون يعصرها الهم ويضنيها الأسى ، تنغمر فى خواطرها والساعات تنطوى . و « إلهام » فتاة فى الثامنة عشرة من سنى حياتها فهى فى شبابها الأول تنبض بالحياة وتتفتح عن أمل باسم وتتألق عن جمال رائع فتان ، تشع نوراً وسعادة وتتلألأ بهاء وضياء . لم تذق الحزن ولا عرفت معنى الكآبة ، فهى بين أبيها وأمها وأختها الصغرى فى بهجة ما تنقطع أسبابها ، فما لها — الآن — تجلس وحدها فى ظلام الحجرة وظلام الأخيلة ؟ وإن الشيطان ليوسوس لها بين حين وحين فلا ترى الحياة إلا عوداً من ثقاب تشعله فى ثيابها ، وإلا حبلاً تلفه حول عنقها وتتعلق به فيقضقض عظام رقبتها ، وإلا نافذة تنفتح لتقذف بنفسها منها . ولكنه ما زال فيها بقية من دين وصبابة من أمل .

وتسرب نور الصباح إلى حجرة إلهام يفزعها عن فراشها وعن خواطرها فى وقت معاً ، واندفعت صوب الشباك تريد أن تسرّى عن نفسها بعض ما أمضّها فما وجدت فى نسمات الصبح الندية ما يرفه عنها كربة قلبها ، ولا فى النور الجميل المتدفق من لدن المشرق ما يمسح على همّ روحها .

يا عجبا ! لقد كانت تجد فى بسمة الصبح الجمال والحياة والنشاط جميعاً فما بالها الآن تفر منها فى ضيق وملل .

◦ ◦ ◦

وفى عصر يوم من أيام الربيع — منذ أربع سنوات — والرياح تهب رخية لينة توقع لحن السعادة والنور على قيثارة الربيع الهادىء الجميل ، والطائر الغريد يثب على أفنان الشجر وهو يشدو بأنغام النشوة والمرح ، والأزاهير تنفح عبيرها فى خيلاء وتتمايل سكرى وقد هزتها اللذة واستخفها الطرب ، والشمس تنحدر إلى خدرها رويداً رويداً لتذر هذا العالم المضطرب ينام فى هدوء وراحة وأشعتها تتماوت وتتعانق ، يودع بعضها بعضاً قبل أن تتلاشى لدى المغرب .

حينذاك اندفعت إلهام إلى الحديقة فى ثوبها الحريرى الأبيض الرقاق وهى فى عطرها الأرج وشبابها الفياض تنفث الحياة فى هذه الناحية وما فيها سوى البستانى العجوز يفحص الأرض بفأسه الصغيرة ، اندفعت إلى الحديقة تحنو على أزهارها وتحبو شجيراتها ببعض عطفها وتتنقل هنا وهناك ، فهى زهرة نضيرة بين أزاهير ، ولكن فيها هى الحياة الوثابة وفيها الجمال الآسر وفيها الخفة والفتنة وفيها السعادة والبشرى . لقد تفتحت الأزاهير وتكاد أوراقها أن تذبل ، أما هى فتوشك أن تتفتح عن أكمامها فتبدو فى بهائها وروعتها ملء العين وسحر القلب وإن ربيع الأزاهير لينطوى فى غير بطء ولا تلبث ، أما ربيعها هى فيقبل فى هدوء وأناة ، وغمر الحديقة نور الفتاة فتراءت كأنما ترقص طرباً وحبوراً .

ودخل « عادل » إلى الحديقة — على حين غفلة — فألفى الفتاة أمامه وجهاً لوجه فرأى فيها معانى قلبه الشاب ولكنه ما يزال فى الجامعة وما تزال هى طفلة . وسألها عن أبيها وعن أمها فما وجدها . لقد خرج معاً ليقضيا شطراً من الليل خارج الدار . وهمّ الفتى أن يرجع غير أن الفتاة طلبت إليه أن يتلبث قليلاً لتعرض أمامه أزهارها وشجيراتها .

وتحدثت الفتاة فى طلاقة واستمع الفتى . وانطلقت وانطلق هو إلى جانبها يحدثها وتحدثه هى حديث الزهر والشجر والربيع والأصيل والمطر .. ورقت كلمات الفتى وتكسرت نبراته ... ثم خرج ووقفت هى تنظر إليه فى صمت ، وأحست الفتاة بالوحدة

(*) يا قارئى العزيز : هذه مشكلة من الحياة لم تتم فصولها للآن . وأنا أنتظر رأى عقلك فيانا عسى أن تشير ؟ لعل رأيك ينير السبيل لفتاتى !

حين رأت عادلاً يتوارى خلف سور الحديقة فأرادت أن تندفع في إثره لترده إليها ، ولكن ..

وعادل فتى سمهري القوام قوي العضل وضاح الجبين يتألق وجهه حياة ونشاطاً ، وتنبعث من عينيه أشعة نفاذة قوية علامة الذكاء والفطنة ، وتضطرب في محجريه آثار عبرات مكنونة علامة الإنسانية والرقة ، وتتسم حركاته بالاتزان والرزانة علامة الرجولة والقوة ؛ وهو — إذ ذاك — طالب في السنة النهائية من كلية الآداب واسع الأفق حلو الحديث عالي الأسلوب رقيق الحاشية ، طيب القلب ، عالي الهمة ، يعتز بعلمه وأدبه ، حريص على كبريائه وكرامته .

لقد دأب عادل — منذ أن التحق بكلية الآداب — على أن يزور « فكري بك » — والد إلهام — كل أسبوع فهو صديق أبيه وهو موئله هنا في القاهرة . وإن عادلا ليفزع إلى فكري بك يستعينه على أمره ويستنير برأيه ويطمئن إلى نصيحته ، وهو فتى ريفي يشفق على نفسه أن يجرفه تيار المدنية ويتهيب أن يعصف به لهو الحياة ، فهو يرى في ( البك ) الأب والقائد والمثل الأعلى ، وفكري بك يرى في عادل الابن والصاحب والصديق . وأنس واحد إلى واحد واطمأن إليه ، فعادل ما يبرح يزور ( البك ) و ( البك ) ما يبرح يفتقد عادلا ويطلبه فيلح في الطلب ، يقيمه على بعض شأنه ويفتح له بابه وقلبه وذراعيه .

لطالما جاء عادل إلى الدار ، ولطالما تحدث إلى إلهام في عطف ، ولطالما جلس إليها يعينها على الدرس ولطالما قص لها الأقاصيص وأهدى إليها الكتب ولكنها لم تحس بما يدفعها إليه إلا في هذه المرة . أفكان ذلك من أثر شعورها بأنه أزال عنها الوحدة في الحديقة في عصر يوم من أيام الربيع ؟ أم هو شعور بالعطف عليه حين لم يجد أباها فأراد أن يرتد في خذلان ؟ أم هو التقدير والإجلال لمن وجدت فيه الحلي والعون ؟ لا ريب فهي قد أحست في نفسها شعوراً غامضاً لا تعرف مأتاه ولا تدرك كنهه ولكنه يدفع قلبها صوب هذا الفتى .

وبدأت الفتاة ترقب موعد زيارة عادل في شغف وتنتظر مقدمه في شوق وتتأهب للقياه في زينة . ولكنها في سنها المبكرة ما تزال تجهل ما يضطرب في نفسها .

وانطوت الأيام والفتاة تأنس إلى فتاها ، تهفو إلى مجلسه وترنو إلى حديثه وقلبها يزداد تعلقاً به وأخيلتها تحوم حواليه فهي تخلق الأسباب لتسأله فيجيب وتصطنع الجهل ليشرح لها درساً أو يحل لها مسألة ، والفتى مطمئن إلى ما تفعل راض بما يجد ، يرى فيه راحة قلبه وشفاء نفسه . غير أن الفتاة لم تستطع أن تدرك كنه ما تحس . هذه العاطفة المشبوبة تبعث فيها الحيرة والاضطراب وهي تكتمها فلا تتحدث بها إلى أمها ولا تبوح بها إلى أختها الصغيرة . وكيف تفعل وفي رأيها أن فتاها لا يبادلها عطفاً بعطف ولا إخلاصاً بإخلاص ؛ وهي إن فعلت لا تأمن أمها أن تغلظ لها في الحديث أو تتهكم عليها بكلمات قاسية عنيفة . وأختها طفلة لا تفهم لغة القلب ولا تعي حديث الهوى ، وهي لا تستطيع أن تحدث صاحبها بذات نفسها خشية أن يكون في شغل عنها فيحتقر خلجات روحها ويمتهن نبضات قلبها . وألقت بها هذه الخواطر في تيهاء مقفرة ثم قنعت بأن تستمتع برؤيته بين الحين والحين ، وأن تسعد بحديثه بين الفينة والفينة ، تروي ظمأ نفسها وتنقع غلة قلبها ، والأيام تنطوي . .

أما عادل فقد أحس بالهوى الجياش يتدفق إلى قلبه في غير هوادة ولا لين منذ أن رآها تثب بين النبت والزهر ترفل في ثوبها الحريري الفضفاض تتوثب نشاطاً وحياة وتتألق بهجة ونوراً ، وشغف بها حين رآها تستكمل — على الأيام — أنوثتها وجمالها ، فهو يتودد إليها في رفق ويسعى إلى رضاها في صمت ؛ والحياء يمنعه من أن يكشف لها عن دخيلة قلبه خشية أن تنفر منه فلا يراها بعدُ وأن تزدري عاطفته فتسخر منه فتحطم كبرياءه وتصدع كرامته .

وحال الخجل بينه وبين أن يحدث أباها بما يكن للفتاة من حب خيفة أن يثور به فيضع بينهما سداً لا يستطيع واحد أن يظهره وإن جهد .

وليست هذه بالسبيل التي يسلكها إلى غايته ، فهناك في القرية أبوه وهو رجل ذو عقل وتجربة ، يرى الرأي ويوطئ للأمر فينفذ إليه من منافذ يعجز عنها عادل نفسه .

وألقت به هذه الخواطر في تيهاء مقفرة ، ثم قنع بأن يستمتع برؤية فتاته بين الحين والحين وأن يسعد بحديثها بين الفينة والفينة

يروى ظمأ نفسه وينقع غلة قلبه ، والأيام تتطاوى .

ورأى الأب بعيني تجاربه أن الفتى يحنو على الفتاة وأن فتاته تعطف على الفتى ، وخشي أن تمتد يد إلى يد أو يهفو صدر نحو صدر أو تقترب شفة من شفة ، ثم ساورته الريبة واستولى عليه الشك . فماذا يفعل ؟ وهو لا يريد أن يغلق بابه دون الفتى وهو صديق أبيه ، ولا أن يدفعه عن داره وهو يستعينه على بعض شأنه ، ولا أن ينشر ظنونه أمام الفتى فيظن هو ويظن أبوه أنه يعرض ابنته كما تعرض السلعة البائرة في السوق الراكدة يبتغي من وراء ذلك أمراً . وتملكته الحيرة

وجاء عادل — كدأبه — يزور ( سعادة البك ) ، ورأته إلهام وهو يدلف إلى حجرة المكتب فانطلقت إلى هناك كدأبها ، ولكن أباها طردها في غلظة ، ونهاها عن أن تدخل حجرة فيها « الأستاذ عادل » إلا أن يؤذن لها .

وذهل الفتى حين بدا له أن عين الشيخ يقظة مترقبة ، وعجب ألا ينطلي على ( البك ) ما يصطنعه من رزانة وما يتكلفه من هدوء : الآن وقع ما كان يخشاه وضرب بينه وبينها بحجاب كثيف ما يستطيع واحد أن يظهره وإن جهد . وأطرق الفتى وقد تجهم وجهه وتقبضت أساريره ، ثم خرج من لدن الرجل يهيم على وجهه وقلبه يبكي في حرقة وألم ونفسه تتميز في أسى ولوعة وثارت كبرياؤه فخاصم الدار وروحه ترف حواليها .

يا لقلبي حين تغشاه غاشية من مصائب الحياة ونكباتها فلا يجد عنها مصرفاً ! الآن ذاق قلب الفتى مرارة الحسرة والكمد حين تلفت فإذا هو وحيد على حيد الطريق ، أما الفتاة ... !

* * *

ومضت سنة كاملة والفتى يدافع نفسه عن الدار التي يهفو إليها قلبه . وحين خيل إليه أنه ثأر لكبريائه واقتص لكرامته أحس رغبة ملحة تجذبه إلى دار فكري بك — مرة ثانية — ليرى هناك روح قلبه ونور عينيه وجمال حياته .

وعجب عادل أن رأى الخادم يتقدمه ليفسح أمامه الطريق وليقوده إلى حجرة الجلوس دون حجرة المكتب ! ماذا كان ؟ لا ريب فقد أصبح غريباً عن هذه الدار فهو يرى الأستار تسدل في وجهه ، والأبواب تغلق دونه ، ولا يجد السبيل إلا إلى حجرة الجلوس ، ولا يلقى إلا ( سعادة البك ) و ( البك ) يلقاه كما يلقى رجلاً غريباً عنه ويحدثه حديثاً فيه التكلف والتصنع ويجلس إليه في فتور وملل . وأحس بأن في الدار حركة لم يتألفها وأن شيئاً يتوارى خلف الأستار المسدلة . ما ذا وراء ؟ وهو قد كان — منذ شهور — يدخل إلى الدار في غير إذن فتفتح الأبواب وترتفع الأستار ويهفو نحوه كل من في الدار في غير تحرج ولا حذر ...

وذهب عادل يتحسس من الأمر وإنه لذو حيلة ورأى فتناهى إليه أن فتاته قد سُميت على جلال بن عزت بك وهو ضابط في الجيش وهو من أسرة ذات جاه وثراء ، وإن الدار تموج منذ أيام بمن يهيئون لليوم السعيد يوم أن تزف إلهام إلى جلال

ورجع الفتى إلى داره يلفه الهم ويطويه الأسى وفي نفسه ثورة بركان هائج لا يهدأ ، فهو يذهب ويجيء ويضطرب في الحجرة مثلما اضطرب وحش كاسر في قفص . آه ، يا قيود الإنسانية لو قُيِّض للفتى أن يقذف بك عن عاتقه لزأر زئير سبع غالته الحياة وعضته الأيام ! ولكنك أرغمته على أن يكتم الحيوانية الصريحة فيه ، فهو يضم جوانحه على أتراحه وقلبه يكاد ينشق من فرط الشجن . وحين آده الجهد والإرهاق جلس إلى نفسه يحدثها : « ماذا كان في غيابي ؟ لعلها وجدت فقدي زماناً ثم سلت ، ولعل أمها قد طلبتني ساعة ثم نسيت ، ولعل (البك) انتظرني حيناً ثم انصرف ! يا لطيشي حين خاصمت هذه الدار وفيها روح قلبي ، ونور عيني ، وجمال حياتي ! هذا ذنبي أحمله وأعاني من وخزاته ما ينوء به ذو الجلد والصبر . ولكن هل أستسلم وأخضع ؟ كلا ! فغداً أجد السبيل إليها وأحدثها حديث قلبي ، ثم أرى ماذا تفعل وما ذا تقول . ولكن كيف أفعل وهي قد سميت على رجل غيري وستصبح — بعد أيام — زوجة وربة دار . إن قلبي لا يستطيع الصبر ولا السلوان ، فغداً أراها وأتحدث إليها » . وانطوى الليل كله فما غمضت عينه ولا هدأت ثائرته ، وفي الصباح انطلق إلى هناك يلقى الفتاة !

وجلس إليهـا في غير رقبة ولا حذر يحدثها ويعتب عليها وينشر أمامها مكنون قلبه وهي تقول له : « أترى يوم أن تلاقينا في الحديقة منذ سنوات أربع ، لقد أحسست بقلبي يندفع نحوك ، وشعرت بروحي تصفق حواليك ، ووجدت — منذ تلك الساعة — لذة الحياة وسعادة القلب ، وخشيت أن أنفض نفسي أمامك ،

وأنت فى شغل عنى ، فلا أجد منك إلا الاحتقار والامتهان ؛ وأنا أرسف فى أغلال التقاليد وقيود البيت ، وما كان لى — وأنا فتاة فىّ الخفر والحياء — أن أتحدث حديث الحب إلى فتى فيه الشباب ، لم يسع هو إلىّ ، ولم يكشف لى عن دوافع قلبه ولا خلجات ضميره » ! وأطرق الفتى ساعة ثم قال : « وما ذا وراء ، وأنا أحبك ملء روحى ، وأراك نور الحياة وشباب القلب ؟ » قالت : « ... وحين وافقت على رأى أبى كنت قد خشيت أن تكون قد طردتنى من نفسك لأنك نأيت عنى ، وخفت أن أطرد خطيبى فأتخلف عن الركب ، وإن شبح ابنة عمى ليضطرب فى ناظرى كلما ذكرت الخطبة والزواج ، فهى قد نأيت حيناً عن الزوج أنفة منها وصلفاً . وهى الآن قد أشرفت على الأربعين ولما تجده ، لقد فاتها الركب ، وتخلفت عن القافلة » . فقال : « فما ذا ترين وأنا لا أجد الصبر عنك ؟ إن عقلى قد ضل فهو لا يهتدى إلى رأى » قالت : « صبراً ، وإن فى الوقت فسحة » .

وخرج الفتى ليذر فتاته وحدها فى مضطرب من الأفكار يلتهمها الهم ويفريها الأسى ، وهى جالسة فى ظلام الحجرة وظلام الأخيلة ، وإن الشيطان ليوسوس لها فلا ترى الحياة إلا عوداً من ثقاب تشعله فى ثيابها ، وإلا حبلا تلفه فوق عنقها ، وإلا نافذة مفتوحة تقذف بنفسها منها . وأصاب الحزن نفسها ، وزعزعتها الحيرة ، فبدت فى عينى أمها ذاوية ذابلة ، وهى تلق خطيبها فى فتور ، وتحدثه فى ملل ، وهى تغدو وتروح فى تراخ ، وتقضى حاجاتها فى كسل . ونظرت إليها أمها بعينى المرأة والأم معاً ، فتبين لها أن قلبها قد تحول ناحية أخرى ، فراحت تتسلل إلى قلبها فى عطف حيناً ، وفى مكر حيناً آخر ، فما تلبثت الفتاة أن كشفت لها عن خطرات قلبها ...

وراحت الأم تنبه جلالاً إلى أمر ذى خطر ، وتوحى إلى ابنتها الصغيرة أن تسر إلى عادل أن يقطع صلته بهذا البيت فلا يزوره أبداً ، فهو يخلق بزياراته مشكلة يعضل عليهم حلها .

ووعى الشابان كل ما سمعا . أما عادل فانطلق يتلمس دواء لقلبه ، وأما جلال فراح إلى غريمه يحدثه : « ... وأنت تعلم — يا صاحبى — أنها سميت علىّ ، وأنى أحبها ، وأنى رجل حرب لا أومن إلا بأحد أمرين : الفوز فى المعركة ، أو الموت !

فأنت حين تضحى تحفظ علىّ حياتى وسعادتى ... » فأجابه عادل فى هدوء : « وأنت حين تفوز فى المعركة تقتلها وتقتلنى معها » ! قال جلال : « ولكننى قد أعددت كل شىء ، وتستطيع أنت أن توهمها بأنك لا تليق بها ، أو أنك تخشى انتقامى » . قال : « وهذا لا أرضاه ، وكيف أرضى أن تنهار كبريائى فى نظر الفتاة ، ولا تنس أن رجلا ثالثاً سيعيش دائماً بينكما . لقد سبقتك إلى قلبها ، وإن كنت أنت سبقتنى إلى خطبتها » . قال جلال : « ولكننى أفزع إلى كرمك ورجولتك » . فأجابه عادل : « هذا شىء لا أملكه ، فنبضات قلبى وقلبها تتفقان معاً ، فكيف أستطيع ؟ » فقال جلال فى رجاء : « أرجو أن تفكر فى الأمر ملياً قبل أن تهدم بيتاً توشك عمده أن تقام على أساس » .

وافترق الشابان ابتغاء أن يقلّب كل واحد منهما الرأى ، واتفقا على أن يضحى واحد فى سبيل الآخر !

وظل الشابان فى تردد وحيرة ، والفتاة فى الدار لا تجد الخيرة من أمرها ، وهى قد وافقت منذ حين على أن تتزوج من جلال . فمن عسى أن يضحى يا قارئى العزيز ؟

كامل محمود حبيب

أحمد حسن الزيات

يقــــدم

دفاع عن البــــلاغة

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والملاءمة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة .. الخ .

من فصوله المبتكرة الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً عدا أجرة البريد